المحاضرة الحادية عشرة

اساليب الحكي والسرد رقم 1

يقوم المبحوث – اثناء مقابلة التاريخ الشفاهي – بدور الراوي ويحكي قصته . وهذه عملية تعاونية من عمليات الحكي تضم كلا من الراوي والباحث القائم باجراء المقابلة . حقيقة ان الراوي هو الذي يحكي قصته , ولكن الباحث – الذي يجري المقابلة – هو الذي يشجع هذا الحكي ويرعاه من خلال اصغائه واستعماله لاساليب الملاحظة . وبالاضافة الى الكلمة المنطوقة في حد ذاتها , فان الطريقة التي يتبعها المبحوث " الراوي " في رواية قصته هي في حد ذاتها محل اعتراف من قبل الباحثين القائمين بمقابلات التاريخ الشفاهي بانها مصدر مهم من مصادر المعرفة .

 ينشغل الباحثون الكيفيون , بصفة عامة , بالبحث عن المعنى الذي يضيفه الناس على حياتهم , اما الباحثون في التاريخ الشفاهي فيهتمون بالتوصل الى خبرات واصوات اولئك الذين يدرسونهم بطريقة استيعابية شاملة , وهي طريقة متفردة في مجال ممارسة منهجية البحث الخاصة بالتاريخ الشفاهي والتطور التاريخي لهذه المنهجية . ويميز ويليامز بين الكلمة بالصوت العادي وكلمة بالصوت العالي وذلك لانها قد تدل الى الايماءات غير اللفظية وتغير نغمات الصوت , والتعبيرات , والحركات الجسدية , وانماط الكلام , وحالات السكوت ( او لحظات الصمت ) . فهذه المكونات الداخلة في تركيب المقابلة تمثل جزءا من التعبير الشامل الذي يعبر به الشخص المبحوث عن نفسه . ومن هنا يمكن القول بتعبير اخر انه يتوجب علينا ان نحاول الحفاظ على الجوانب الادائية للحكي وان نتعلم منها والا نسمح بفقدانها اثناء قيامنا بتدوين المقابلة وتحليلها . ويحث ويليامز الباحثين على الانتباه لما يبدو في صوت المبحوث ( بالمعنى الكلي للصوت ) , بحيث يكون اشد من الانتباه لمجرد الكلمة المكتوبة التي يوفرها سجل المقابلة المنقح او النظيف ( اي المهذب الخالي من الايذاء) . وحينئذ يستطيع الباحث ان يستعمل مهاراته , في الاصغاء والملاحظة لكتابة " المذكرات الميدانية " او " التعليقات الجانبية " اثناء المقابلة او عملية التدوين .

للناس اساليب مختلفة في رواية حكاياتهم . وتؤدي اساليب التواصل المختلفة هذه الى ظهور انواع مختلفة من عمليات السرد . وفي هذا الاتجاه يحتاج الباحث الى التركيز على " علم الرواية " او على بنية السرد . بين بعض العلماء النسويين وغيرهم من العلماء النقديين منذ زمن بعيد , فان شكل السرد والاختيار اللغوي الذي يفضله الراوي يزوداننا كذلك ببيانات مهمة عن هذا الراوي . وبهذه الطريقة , فان ما يستعمله الراوي من لغة واسلوب في الحديث لا يقتصر وهما على انهما يوفران اطارا للمحتوى الفعلي للمقابلة , بل انهما يشكلان كلاهما جزءا متمما لها . ويؤكد احد الاتجاهات الكلية في التاريخ الشفاهي على اهمية كافة جوانب هذه العملية . ويهتم الباحثون المعنيون بالتاريخ الشفاهي , الذين يغلب عليهم العمل من منظورات فكرية نسوية , ومنظورات تهتم بالعالم الثالث , كل هؤلاء يهتمون بفهم خبرات المهمشين داخل المجتمع . من حيث كيفية تاثير وضعهم هذا داخل الثقافة على خبراتهم الحياتية عندما يفسرونها , وكيف اثرت هذه الخبرات – بدورها – في اسلوبهم في رواية حكاياتهم ؟

ويعتبر اوتر لويس عن هذه القضايا قائلا :- اللغة هي القوه الخفية التي تشكل النصوص الشفاهية وتضفي المعنى في الاحداث التاريخية . انها الأداة الاساسيه التي بها تسترجع الخبرات ش الماضية ويجري تفسيرها. وان التنبه للغة , وتنويعاتها ومفاهيمها وقوالبها من شانه ان يثري تحليل النص السردي بما يجاوز نطاق الاهتمامات اللغوية الصارمة. وتعد اللغة – في لبها وجوهرها - القوة المنظمة التي تصوغ قالب السرد الشفاهي وفقا للأسلوب المتميز للراوي . والحقيقة ان الاساليب الفردية تتفاوت بتفاوت الافراد , فان الانماط المتكررة الحدوث تشير الى ما هو اكثر مما تشير اليه عمليات التلاعب بالألفاظ التي قد يلجا اليها الراوي. ذلك ان انماط الكلام - التي هي جزء لا يتجزأ من السرد الشفاهي - بمقدورها ان تكشف حقيقة ما للراوي من مكانة اجتماعية , و علاقات شخصية مع الاخرين وتصورات عن اللغة , وعن النفس , وعن العالم. ففي حالة النساء السود مثلا يتعين علينا ان نتسائل عما تكشفه انماطهن السردية عن حياتهن . وكيف تؤثر خبراتهن المتفردة على الطريقة التي يحكين بها قصص حياتهن الشخصية؟ ان النجاح في فن التاريخ الشفاهي يعني – عند الباحث النقدي – الفهم, والتقبل , والاستيعاب لاساليب السرد المختلفة بجانب الاعتراف بأهميتها وليس انكار المعاني التي يتضمنها مثل هذا الاختلاف . فان بلوغ هذا النجاح تكتنفه ولا شك بعض الصعوبات. اولا, فقد ظهر التاريخ الشفاهي كمبحث علمي وتطور داخل سياق ابوي ذكوري ( اي في مجتمع قائم على النظام الابوي ) . ثانيا , ربما يكون هؤلاء الرجال الذين نرغب في الاستماع اليهم , قد اعتادوا هم انفسهم على هذا الصمت .

في عالم يسوده الرجال , تكون اشكال التواصل الذكورية هي الاشكال المعيارية, كما يفترض في التعبيرات المستخدمة في التواصل والحوار- التي تختلف عن هذا النموذج -ان تكون اقل حظا في القبول والاعتراف . والمقابلة الكيفية - ومن بين انواعها مقابلة التاريخ الشفاهي- ليست محصنة من تاثير الثقافة التي تمارس فيها . لذلك نجد ان الوسط الاكاديمي ما يزال غارقا في الاساليب الذكورية في التفكير في موضوع بناء المعرفة .بل ان طرق البحث اللاوضعية نفسها ما زالت متاثرة بالاساليب الذكورية في التفكير في موضوع اللغة , واللغة تتضمن اجراء المقابلة الكيفية .

ان ما يحتاج الى تغيير في مقابلات التاريخ الشفاهي مع النساء هو اطار التواصل والحوار, وليس المراه . فقد ظهرت طريقة اجراء مقابلة التاريخ الشفاهي, والمتاثرة بارتباطاتها بالتاريخ الاكاديمي و بممارسة اسلوب المقابلة بصفة عامة , ظهرت وتطورت داخل سياق نظام التواصل الاجتماعي الذكوري . ونظرا لان الكلام الذكوري يكون هو المعيار المتبع في هذا العالم الذكوري , فان أي نوع اخر من الكلام يعد في رتبة دون هذا المعيار .

ونظرا لاننا منغمسون كل الانغماس في ثقافتنا, فاننا معتادون على الاشكال الذكورية في الحوار والتواصل . لذلك فانه لكي نؤدي دورنا في تمكين الاخرين من رواية حكاياتهم, يتوجب علينا ان نكون لماحين للتنوع الموجود في اساليب الحوار والتواصل وفي اشكال السرد ايضا, بما يتضمنه موقفنا هذا من امعان النظر في مدى ما لثقافتنا من تاثير على ما عندنا من مسلمات تتصل بمواصفات الطريقة السليمة التي يروى بها المرء حكايته .

ويوضح لنا كثير من العلماء انه عندما نكون منهمكين في هذه العملية فاننا سوف نواجه بالفروق او الاختلافات الموجودة في اساليب التواصل والقائمة علي اساس النوع الاجتماعي. فالنساء بصفة خاصة , وباعتبار انهن فاعلات يستوعبهن نظام اجتماعي عام , فانهن يتحاورن يتواصلن فيما بينهن على نحو مختلف عن الرجال .زد على ذلك ان اساليب التواصل النسائية لم تحظ بعد بالاعتراف من الاوسط الاكاديمية ولا من المجتمع بصفة عامة. وعلى هذا يتوجب على الباحث , عند قيامه باجراء مقابلات مع النساء, ان يفهم عملية الحكي التي تتبعها المراه المبحوثة في المقابلة و ان يعترف بها .

 على الرغم من ان بعض النساء الراويات قد تكيفن بشكل جيد مع هذا النظام الذكوري في اجراء المقابلات , والذي يتوجب على الباحثات اللاتي يقمن باجراء مقابلات التاريخ الشفاهي ان يسعين لتحصيله, فاننا لن نسمع ما تعده النساء امرا جوهريا لحياتهن ما لم نعترف بوجود سياق انثوي للتواصل الاجتماعي خاص بموقف مقابلة التاريخ الشفاهي.. ولن نكون قادرين على ان نسمع او نفسر ما تقدره النساء من الامور اذا لم نكن نعلم كيف نتابع النساء وكيف نصغي اليهن وكيف نتكلم معهن كما تفعل النساء . ونحن في حاجة اولا لان نعرف معرفة متعمدة مقصودة كيف تحاور المراه نفسها فعلا ,و كيف تتواصل النساء مع بعضهن .